AHMET SUAYIP

AL-DAWLAH WA-AL-JAMA'AH

Princeton University Library
32101 073504480

2070
.12613
A7
.328

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE
OCT 2 9 1991 | 1992

JUN 15 2009

الدولة والجماعة

بقلم الكاتب التركي الكبير

المرحوم أحمد شعيب بك

ترجمها من اللغة التركية

محب الدين الخطيب

محرر في المؤيد

— حقوق الطبع محفوظة —

القاهرة

١٣٣٠ هـ.ق - ١٢٩٠ هـ.ش - ١٩١٢ م.ش

مطبعة المؤيد

Ahmet Şuayip

الدولة والجماعة

al-Dawlah wa-al-jamā'ah

بقلم الكاتب التركي الكبير

المرحوم أحمد شعيب بك

ترجمها من اللغة التركية

محب الدين الخطيب

محرر في المؤيد

— حقوق الطبع محفوظة —

القاهرة

١٣٣٠ — ١٩١٢

مطبعة المؤيد

(RECAP)
2070
.12613
.A7
.328

أقدم هذه الرسالة الصغيرة

هـدية

الى مترجم كتاب « روح الاجتماع »

محب الدين الخطيب

مقدمة :

علم الجماعة في الشرق

بقلم

العلامة المؤرخ رفيق بك العظم

قلّ من عني في الشرق الأدنى بعد العلامة (ابن خلدون) بالكتابة في الاجتماع ونواميسه والدول وما يلازمها من قوانين النمو والدثور ، ليس ذلك لضعف فطري في ملكات العلم عند الشرقي ، بل لضعف طاريء سببه الحكومات وزعماؤها . لأن كل كلام في الاجتماع والجماعة يتناول بالضرورة الحكومات وقوانينها ، ولم يكن من المحال في كل عصر أن يتناولها العلماء بالبحث لا سيما من الوجهة الفلسفية المبنية على تشريح المسائل وتشخيص الأمراض والعلل ووصف العلاج الناجع فيها النافع للجماعة وحكومتها .

ومن الغريب أن تنقطع سلسلة البحث في الاجتماع في الشرق بينما كان الغربيون يخطون الخطوات الأولى للخروج

من ربقة الاسر للتقاليد القديمة ويتخذون القوانين الطبيعية لهذا الوجود إماماً في تكوين الجماعات على نظام معروف وطريقة مرتبة تقضي بالترقي التدريجي الكافل بالحياة السعيدة للجماعات الغربية . حتى كان من ذلك أن استحكمت العلل القاتلة في جسم الجماعات عندنا بينما كان الغربيون مجدين بالبحث في علل المجتمعات وأمراض الحكومات يتتبعونها بالأبحاث الدقيقة ويوالونها بالأدوية الناجعة حتى بلغوا منزلة في الرقي لهذا العهد كانوا فيها قدوة الأمم والمبرزين في حلبة السبق في كل شيء .

ولما فاض نور المدنية الغربية على الشرق وأخذت عوامل الترقي الاجتماعي تتسرب اليه بحكم الجوار والمعاملة والمعاشرة والاحتكاك وبات من الصعب الحيلولة بين العقول ومتناولها مما تحت الحس والقيام في وجه الجماعات التي تطلب السير إلى الأمام بحكم الطبيعة التي لا يصادم حكمها مصادم الاّ غلب له واستكان لقوته ـ أخذت تنحلّ تلك القيود القديمة من أعناق المفكرين وذوي البصيرة في الشرق ويحلّ لهم الخوض

فيما حرم عليهم من قبل ولو الى حد متساو مع تقدم الجماعة البطيء. ومن ثم بدأ الشرقيون، ونخصّ بالذكر منهم العثمانيين من السوريين والمصريين والأتراك وغيرهم، يتناولون بأبحاثهم علوم الاجتماع وأحوال الجماعات السياسية بقدر ما تسمح به ظروف الزمان والمكان وتطالوا لمرمى ما دوّنه الغربيون من هذه العلوم فتناولوها بالترجمة والبحث، فترجموا الى العربية « أصول النواميس والشرائع » (١) لمونتسكيو و « أصول الشرائع » (٢) لبنتام و « روح الاجتماع » (٣) لجستاف لوبون و « طبائع الاستبداد » (٤) لألفيرى. كما ترجم الى

---

(١) ترجم الجزء الاول منه يوسف بك أصاف المحامي وطبعه في مصر سنة ١٨٩٠

(٢) ترجمه أحمد فتحي أفندي زغلول رئيس النيابة العمومية (سعادة أحمد فتحي باشا وكيل نظارة الحقانية) في مصر وطبعه سنة ١٣٠٩

(٣) ترجمه سعادة أحمد فتحي باشا زغلول وطبع سنة ١٣٢٧

(٤) ترجمه الرحالة (ك.) وهو المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي مع حسن التصرف والتعديل فيه وطبع سنة ١٣١٧

التركية كتاب « الاستبداد » (١) لألفيري و « روح الاقوام » (٢) لجستاف لوبون - وهو غير روح الاجتماع - وربما ترجم اليها غيرهما مما لم يقع نظرنا عليه .

وقد طرقوا أيضاً باب الكتابة في الجرائد والمجلات في تشريح أحوال الجماعة وأصول الحكومات وفلسفة التشريع على وجه يشعر أن الشرق بدأ يطبق أعماله على نواميس الحياة الصحيحة وعلى قوانين الوجود المعقولة المبنيتين على العلم والاختبار بطرقه باب البحث في العلوم السياسية والاجتماعية وتقديره قدرها بعد أن حرمت عليه مدة غير قليلة ، ولو تيسر له وصل سلسلتها من عهد (ابن خلدون) الى اليوم بالبحث والاستقصاء والكتابة لنضجت هذه العلوم في الشرق نضوجا لم

---

(١) ترجمه الدكتور عبدالله بك جودت صاحب مجلة (اجتهاد) التركية وطبع في جنيف

(٢) ترجمه الدكتور عبد الله بك جودت أيضاً . وطبع في مصر سنة ١٩٠٨ . وقد أخذ مترجم هذه الرسالة (الدولة والجماعة) بنقله الى اللغة العربية وسينشر قريباً

يجعل الشرقيين في تلقيها والاستفادة منها عالة على الغربيين لهذا العهد ولما بلغ نظام الجماعات الشرقية من الانتشار والتبدد مبلغاً اضطرب فيه حبل معظم الحكومات الشرقية لا سيما الاسلامية واستؤصل بحكم الطبيعة استقلال اكثر الشعوب الشرقية فاصبح خبراً في الغابرين وذكرى وموعظة للحاضرين.

وممن عرف من الكتاب العثمانيين بطرق هذه الموضوعات الهامة والبحث في أحوال الجماعات لهذا العهد (أحمد شعيب بك) الكاتب التركي الشهير الذي اختطفته المنون في هذه السنة ففجعت به الأمة التركية وفقد العلم بفقده ركناً يأوي اليه طلابه من العثمانيين.

لم يكن في المملكة العثمانية قبل اعلان الحرية من يستطيع الجهر بما عنده من العلم بمثل هذه الفنون الا اذا كان خارج المملكة أو بث آراءه في عقول النشء بثاً في غضون التدريس أو غيره. وكان أحمد شعيب رحمه الله مدرساً في مدرسة الحقوق في الاستانة فكان يدمج آراءه الاجتماعية في دروسه ادماجا يكفي أن ينير لتلاميذه السبيل من حيث لا يشعر المراقبون

على العقول والآراء . ولما وضع أساس الحكومة الدستورية في المملكة العثمانية في ١٠ تموز سنة ١٣٢٤ (٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨) وانفرجت أزمة العلم وانطلقت الألسن والأيدى والعقول من عقال التقييد بقيود الرهبة والاستخذاء لسطوة الاستبداد وبرز الكتاب العثمانيون في ميدان الحرية الفكرية كان أحمد شعيب في مقدمة السابقين الى خوض عباب البحث في المسائل الاجتماعية . فكتب فيما كتب من الفصول في (مجلة العلوم الاجتماعية والاقتصادية) التى أنشأها وتولى تحريرها مع جاويد بك والدكتور رضا توفيق بك هذه الرسالة بعنوان « الدولة والجماعة » بلغت الغاية في صحة الرأي والبيان على ما فيها من الاختصار . وقد أراد بها تنبيه قومه الى توخي الصواب في حال نشأتهم الدستورية وتجنب الطفرة في تكييف نظام الحكومة لما رآه من تهافت القوم على سرعة التقليد بلا روية ولا صبر .

وقد بحث في هذه الفصول بحثاً دقيقاً في وجوب التدرج في الانتقال من حال الى حال وبرهن على أن من

آيات الترقي الصحيح للجماعات الاهتداء الى مركز التوازن وهو الأخذ بوسط بين طرفين من التمسك بالقديم والانتقال الى الحديث وأن الطفرة مضرة كما أن الجمود مضر أيضاً والتقليد بجملته نافع اذا وافق الوسط واقترن بالاعتدال.

ومن رأيه جواز تجرد الأمم عن شكلها القديم وتلبسها بشكل جديد من أشكال الاجتماع لكن مع البطء ومراعاة أحوال الزمان وروحه ليكون هذا الشكل الجديد خاصا بها ملائما لحالها. اذ أن روح الزمان التي تتنقل في هذا الوجود تحمل الضار والنافع فحيث وجدت لأحدهما مستقراً أقرته.

وتلك كلمة حق بودنا لو اعتبر بها ودقق فيها كثير من دعاة الحرية في الشرق اليوم خصوصا في المملكة العثمانية التي تبلبلت فيها الألسن والآراء فاحتاجت في دور انتقالها الجديد الى حكماء بارعين وأطباء ماهرين يعالجون أمراض الشرق المزمنة بكل مهارة وأناة وصبر.

وبالجملة فآراء شعيب في فصول «الدولة والجماعة» جديرة كلها بالنظر والاعتبار حقيقة بالمطالعة. ولذا رأى صديقي

الغيور الشغوف بالحكومات الدستورية الصحيحة محب الدين افندي الخطيب أن لا يحرم قراء العربية من مطالعتها فجمعها في شكل رسالة قائمة بذاتها وعني بترجمتها الى العربية وطبعها تعميما لفائدتها فترجمها على أسلوب جميل لا يخل بمعنى من معاني الأصل رجاء الخدمة العامة التي هي غاية كل محب لترقي وطنه وأمته . والله ولي المصلحين

رفيق العظم

الاستاذ احمد شعيب (١)

و

الحالة العلمية والاجتماعية

« في القسطنطينية »

ان الذين درسوا حقيقة عاصمة السلطنة العثمانية واختبروا سرائرها كانوا ولا يزالون يعتقدون أن العلم هناك قاصر على حد الشعر المزوّق والنثر المنمق والكتب الروائية والرسائل الادبية. ولم يكن ثمة ما يعارض اعتقادهم الا وجود رجل من أبناء تلك المدينة شذّت طبائعه عن طبائعهم واختلفت طريق آماله وطريق آمالهم. وهذا الرجل هو الاستاذ (احمد شعيب).

كانوا على ضفاف البوسفور والقرن الذهبي يلجؤون الى أحمد شعيب كلما أشكل عليهم فهم شيء من مسائل العلم. ويذكرون أحمد شعيب عندما يشكون قلة الرجال الأكفاء.

---

(١) نشرت في عدد ٦٢٥٢ من المؤيد بمناسبة وفاة المترجم به

وهو الذي يخطر على بالهم لأول وهلة اذا سموا العلماء والمفكرين . فيتمثل لهم بمثال العلم الصحيح وقد تحلى بالفضيلة النقية والذكاء المجسم.

ذهبت أواخر أيام عيد الأضحى بشباب هذا المثال الحي للعلم والفضيلة والذكاء فكفنته الأيام بمسرات عيدها ، وغسلته الناشئة المتعلمة برذاذ دمعها ، وفقدت مدينة البزنطيين الجميلة بفقده درة يتيمة ، وخلى منبر مدرسة الحقوق من رجل يملأ فراغه ، وانقطعت عن (مجلة العلوم الاقتصادية والاجتماعية) وبالتالي عن اللغة التركية روح العلم الصحيح التي كانت تسيل من دماغه الى قلمه فسطور تلك المجلة العلمية الوحيدة .

لعل القاريء العربي في مصر يلومني على شغلي بعض أعمدة من المؤيد في كتابة ترجمة لأحد أساتذة مدرسة الحقوق في القسطنطينية ، وهو ليس من الذين دخلوا في غمار السياسة ولا من الذين يتردد ذكر اسمهم في مناقشات الاحزاب ؛ ولكنه سوف يتبدل رأيه رويداً رويداً كلما تقدم في المطالعة وعلم أن الذى يقرؤه انما هي ترجمة صحيحة للحالة العلمية

والاجتماعية في تلك العاصمة الجميلة.

* * *

ولد أحمد شعيب في (فروق) وتلقى مبادىء العلوم وحقائق الأشياء في محيط حجب الضباب الكثيف معايبه، وستر جمال المظاهر مثالبه، وموّهت الأغراض مواهبه، حتى تأصلت الرذيلة في النفوس، فامتزجت الصداقة بالخيانة والسكينة بالجناية والعلم بالوهم والدين بالسياسة والاطمئنان بالحذر وصلة الرحم بالتجسس والاخلاص بالرياء والصدق بالخوف والازدراء

في هذا المحيط تعلم أحمد شعيب وكان لا يجد نفسه الا بين تلاميذ تشبهوا من أخلاق آبائهم وآمال محيطهم وليس بينهم الا من ينتظر مرور سنوات المدرسة ليكون موظفاً في دوائر الحكومة أو جاسوسا لكبار رجالها. ولم تكن المدارس معاهد للعلم الصحيح كما هو شأنها في البلاد الراقية وانما كانت مناصب التدريس تمنح للقائمين بها احساناً وتفضلا، واذا حملت أنواء المصادفات الى كراسي التدريس في المدارس العثمانية رجلا كفؤاً يمتاز عن زملائه بعلمه وفضله وجد أمامه حوائل

وموانع تضطره الى الوقوف عند حد التعليم النظري .

يقولون ان أثر الرذيلة في النفوس يكون على نوعين متباينين كما أن نفوس الرجال على شكلين مختلفين : فاذا كانت النفس صغيرة واطئة ذهب بها تيار الرذيلة مذاهب الهوى واذا كانت كبيرة سامية نبهها الى منازعته وزاد فيها الشوق الى مقاومته . وهكذا كان شأن شعيب عند ما خرج من المدرسة الثانوية فانه رسم لنفسه أن يدخل مدرسة الحقوق ثم ينصرف الى منزله الصغير في قسم السلطان سليم ليتعمق في درس العلوم النافعة ويشرف على الحالة الاجتماعية في وطنه من كوخه الصغير ، وهكذا فعل فانه ما أتم علومه في مدرسة الحقوق حتى أخذ يستجلب مؤلفات كبار العلماء في أوربا ويدرسها حق الدرس ثم يقابل بين ما تعلمه وبين ما يراه في المجتمع الذي هو فيه ويدوّن ملاحظاته في مذكرات صغيرة .

* * *

منذ أكثر من عشر سنوات كان ابراهيم حقي بك (حقي باشا الصدر الأعظم) أستاذاً لعلم حقوق الدول وعلم حقوق

الادارة وغيرهما في مدرسة الحقوق ومستشاراً حقوقياً في الباب العالي فاطلع في أحد أجزاء مجلة «ثروت فنون» الأدبية على مقالة في «أصول العقوبات الانكليزية» بتوقيع «أ. ش.» فأعجبه ما تضمنته من التحقيقات العلمية وتوصل الى التعرف بكاتبها وهو أحمد شعيب وعينه نائباً عنه في تدريس علم حقوق الادارة. فاستمر شعيب على القاء المحاضرات الحرة في هذا الفن وبدأ يكتب في «ثروت فنون» فصولا جليلة بعنوان «المصنفون والمصنفات» شرح فيها مذاهب كبار علماء أوروبا مثل «ايبولت تن» و «جبرائيل مونو»(١) وصديقه «أرنست لافيس» و «جستاف فلوبر» و «نيبور» و «رانك» و «مومسن»(٢) وغيرهم. وكان أعظم ماتطمح اليه نفس شعيب تصنيف كتاب في التاريخ، وقد جمع له مصادر كثيرة

(١) كنت قد ترجمت هذا الفصل لمجلة المقتبس ونشر في الجزء السابع من سنتها الثانية

(٢) ترجم هذا الفصل صديقي الفاضل صلاح الدين القاسمي ونشر في الجزء ٨ من السنة الثالثة للمقتبس

ومستندات هامة ، ومع ذلك فانه أحجم عن كتابة صفحة واحدة من هـذا الكتاب لأن ما اجتمع لديه من عدته كان قليلا في نظره .

أذكره ـ وقد كنت تلميذاً له في مدرسة الحقوق ـ عندما كان يجمع ذاكرته لالقاء محاضراته النافعة على مستمعيه فينسى ما يكتنفه من ضرورات السياسة وتجيش في صدره الشجاعة العلمية فيتكلم بالحقائق التي لم يكن يستطيع أحد غيره أن يفوه بها تحت سماء (فروق) في ذلك العهد بل ولا في عهدنا هذا.

كان شعيب يرى أن مرض بني قومه انما هو اجتماعي وأخلاقي أكثر منه سياسي ، ولذلك رأيناه بعد اعلان الدستور كما كان قبله معتزلا تلك الضوضاء والمظاهر متجنبا شؤون السياسة منصرفا الى بث علومه التي كان يسعى بها الى ايجاد ثورة اجتماعية وانقلاب أخلاقي وتصورات في الرأي العام مبنية على دعائم قويمة من العلم الصحيح .

بعد أشهر من اعلان الدستور أنشأ شعيب بك مجلة شهرية كبرى في مائة وخمسين صفحة واشترك معه في انشائها

جاويد بك ناظر المالية (السابق) ورضا توفيق بك مبعوث أدرنة سموها « مجلة العلوم الاقتصادية والاجتماعية » وفي هذه المجلة أخذ شعيب ينشر أهم كتاباته مثل كتاب (الأديان) وكتاب (العوامل الاجتماعية) وكتاب (الثورة الفرنسوية الكبرى) وغيرها من المقالات الفلسفية النافعة مثل (الدولة والجماعة) و (التاريخ في القرن العشرين) (١) .

وفي مبحث (الدولة والجماعة) أتى على كثير من القوانين الاجتماعية التي لو تدبرها القائمون بالأمر على ضفاف البوسفور لأنقذتهم من أغلاط كبرى وقعوا فيها . وهو ما فتيء يعلن للناس من منبر مدرسة الحقوق ومن صفحات مجلة العلوم الاقتصادية والاجتماعية أن ملكات الفرد ليست الا ارثاً انتقلت اليه عن جنسه وقومه ، وأن القوانين الصحيحة التي

(١) هي المقالة الاولى من الجزء الاول لمجلة العلوم الاقتصادية والاجتماعية وقد ترجمتها بالعربية وجعلتها مقدمة لكتاب التاريخ العام تأليف محمد مراد بك المؤرخ العثماني المشهور وهو في ستة مجلدات باشرت بترجمتها

يمكن تطبيقها والعمل بها هي التي تكون صادرة عن هذه الملكات الموروثة ، وأن المرافق والأوضاع والنظامات انما هي ترجمان الحالة النفسية والمرتبة المدنية للأقوام ، وأن تبديلها يجب أن يعقب تبديل تلك الحالة النفسية والمرتبة المدنيـة بمعنى أن الانقلابات الادارية والسياسيـة يجب أن تتبع الانقلابات الاجتماعيـة والأخلاقية والاّ فالانقلاب السياسي والتغيير الاداري يظل صناعياً غير طبيعي ولا فائدة من وجوده ، وأن المشرّعين الذين وضعوا الشرائع الثابتة والقوانين الحية هم الذين بحثوا عن شكلها في حاجة الأمة وخصائصها فوضعوها على مثالها على حد قول (سولون) الحكيم : «أنا لم أشرع لأهل أثينا شريعة كاملة مصدرها الخيال ، وانما وضعت لهم قوانين توافق حاجتهم وتلائم استعدادهم » . أما القوانين التي تقننها مآرب السياسة على أثر الفتوحات والثورات والانقلابات فهي لا تبدل غير الأسماء ومتى ارتفع الضغط السياسي ارتفع معه ذلك الاسم الجديد عن الحقيقة القديمة .

كان أصحاب الصحف اليومية على أثر اعلان الدستور

يتغنون كل يوم بأناشيد مختلفة زاعمين أن السلطة انتقلت في البلاد العثمانية من يد الفرد الى يد الأمة ، ولكن شعيب بك الذي درس حقيقة أمته ووقف على حقيقة العلم الحديث كان يناديهم بصوت غير مرتفع صادر من مجلته : « ان نظرية سلطة الأمة لا تزال في عداد الخيالات وليس لها في عالم الوجود وجود . »

كان فتيان السياسة بعد الانقلاب يظنون أن من السهل تطوير الأفكار العثمانية كلها بطور واحد وتوحيد النظام في اليمن ومقدونية وطرابلس الغرب والأناضول والاستانة والعراق . ولكن شعيب بك كان يقول لهم في تلك المجلة ان الوادي الذي احتفرته العصور والأجيال لا تملؤه الا العصور والأجيال واذا أردتم أن لا تنتظروا مئات السنين لتوحيد نظام البلاد فابحثوا في خصائص كل قطر من أقطار السلطنة عن القانون الذي ينطبق على حاجته ويلتئم مع استعداده .

* * *

وبعد فان مدرسة الحقوق في الاستانة قد خسرت رجلا

كبيراً كان علمه متوزعاً بين طلبته على السواء أتراكا كانوا أو عرباً، على أن الصحف التركية تقول : ان شعيباً لم يمت ما دامت كتبه تُقرأ بلغتنا . وعلى هـذا فاني أدعو تلاميذه والمعجبين بمؤلفاته الى ترجمتها بالعربية وبذلك نكون قد أحسنا الى لغتنا وأمتنا والله لا يضيع أجر المحسنين .

القاهرة : ذو الحجة ١٣٢٨

محب الدين الخطيب

علم الجماعة

كان البحث في موضوع الجماعة وقوانينها منحصراً فيما مضى بنفر قليل من المفكرين ، ثم صار اليوم من العلوم التي يكاد يكون درسها والبحث فيها ضروريا للناس أجمعين .

الفرد والجماعة :

ان بين الفرد والجماعة صلة متينة وارتباطاً شديداً بحيث يمتنع — من الوجهة العملية — أن يوجد أحدهما اذا فقد الآخر . وفي كل يوم يظهر لنا برهان جديد على تلازم علم الجماعة وعلم البشر واستحالة التفريق بينهما ، وعلى ان المسائل الفلسفية والأخلاقية كافة داخلة في موضوع المسائل الاجتماعية.

الفرد يرث ملكاته وطبائعه عن جنسه وقومه، وهذا هو معنى الجماعة ، فهي تتبع السنن العامة للحياة الادبية والمادية . وان لعلم الجماعة مساساً وصلة بعلم الحياة ، بحيث يجوز القول بأن الكائنات كلها كانت في بدء تكونها جماعة واحدة عظيمة بما يدخل تحتها من الأجزاء الفردة غير المنظورة . وعلى هذا فعلم الجماعة رأس العلوم كلها وخلاصة مجموعها .

نظام الامة وأوضاعها تبع لاستعدادها وحاجتها :

يرى الاخصائيون في هذا العلم أن الأوضاع السياسية والاجتماعية لكل قوم تختلف عن مثلها في الأقوام الأخرى اختلافاً بيناً . وأن أوضاع الأمة ترجمان حالتها النفسية والمدنية، وأهمية هـذه وقيمتها نسبية دائماً . والأوضاع السياسية في تاريخ نشوء الجماعات غاية وعمل أكثر منهما سبب وعامل .

ليس طراز الادارة السياسية في أمة دليلا على مبلغ حياتها الحاضرة فقط ، بل هو فوق ذلك دليل على الأدوار الادارية التي تقلبت على الأمة في أزمنتها الماضية . وليس في استطاعتنا أن نختار لادارة البـلاد المرافق والأوضاع والنظامات التي تدلنا النظريات على أنها أرقى وأحسن من غيرها . وقد برهن التاريخ على أن المشرعين الذين وضعوا الشرائع الخالدة انما نجحوا في ذلك بعد أن اكتشفوا مبلغ حاجة الأمة . وما أصح وأجمل قول (سولون) : « أنا لم أشرع لأهل أثينـا شريعة راقية مصدرها الخيال، وانما وضعت لهم شريعة تلائم استعدادهم وتوافق حاجتهم . »

في استطاعة تاريخ الحضارة أن يبرهن على أن المرافق والأوضاع والنظامات ترجمان لحاجة الأقوام. ونحن نرى أن هذه المرافق والأوضاع تتساوى وتتماثل عند الأقوام التي بلغت المستوى الواحد من الارتقاء. وليس في التاريخ مثال واحد يدلنا على أن أمة استطاعت أن تبدل مرافقها وأوضاعها بالقسر والقوة.

نعم، ان ذلك قد يكون على أثر الفتوحات والثورات، ولكن الذى يتبدل انما هو الاسم فقط: هذه جزيرة (كورسيكا) التي تحكمها فرنسا فانها — بالرغم من وجود محافظ وقضاة وقانون وشرطة فيها — لا تزال مملوءة بأهل الدعاره وقطاع الطريق ولا تزال طبقاتها الاجتماعية محتفظة بنظامات القرون الوسطى. وهذه (ايرلاندة) لم تقويد الانكليز الحديدية على تغيير شيء فيها: ان لطبائع الأمم وفطرها سلطة على مرافقها وأوضاعها، وان تبدل هذه منوط بتغير ماتربت أدمغة الأمة عليه.

لا طفرة في الارتقاء :

لم يكن للمشرعين والمقننين أن يضطروا قوماً الى العمل بقانون جاؤا به من عند أنفسهم . وان الثورات المدهشة والفاتحين العظام لم يتمكنوا من حمل الناس على الخضوع لأوضاع ونظامات لا تتفق مع حاجتهم الا الى وقت محدود . وان مثلهم في ذلك كمثل الحيوان يضطر الى ان يعمل عملاً يخالف طبعه فهو لا يقدر أن يصبر على هذا العمل الا دقائق معدودات ومتى ارتفع عنه الضغط عاد الى طبيعته التي فطر عليها . وكذلك شأن الأمم في أوضاعها ونظاماتها التي لا تنطبق على حاجاتها فانه لا يمر زمن قليل حتى تعود الأوضاع الى ما كانت عليه قديماً ولا يبقى على الحقيقة القديمة من النظام الجديد الا الاسم الجديد. من هذا يعلم أن النظامات والأوضاع ترجمان حاجة الأمة ومثال شعورها ولا تتبدل تلك الا بتبدل هذه ، والتبدل لا يكون الا بالتدرج الارثي البطيء . اذ الباعث على نشوء النظامات والأوضاع الاجتماعية هو نفس الباعث على نشوء الكائنات في العالم . من أجل هذا كان من المستحيل

حدوث التبدل الفجائي ، ومن سنة هـذا المجتمع أن يكون التغير فيه نتيجة لمجموع التعديلات الخفية التي تحدثها أجيال الناس على توالي العصور . وانما نحن نشعر بالتغير عند ماتؤيده القوانين الوضعية فنظن أنه أثر لتلك القوانين غـير عالمين أنه نتيجة حركة متواصلة وعمل كبير .

ان وظيفة المقننين الحقيقيين هي البت في تأييد العـادات التي رسخت في الرأي العـام بعض الرسوخ ومقاومة الضار منها وغير المفيد . وربما كانت مطالعة قانون الأمة أدلّ عليها من مطالعة تاريخها ، لأن الوقوف على ما رأى القـانون أن الأمة في حاجة اليه وعلى الشؤون التي يأمر بها أو ينهى عنها ـ يكفينا للحصول على فكر صحيح عن الحـالة الاجتماعية التي ألجأت الى ذلك .

ارتقاء الأفراد والأقوام والأوضاع والعقائد لا يكون الا تدريجياً فاذا ذكر التاريخ أمة بأنها كانت ذات حضارة راقية جاز لنـا الحـكم بأن حضارتها ثمرة ماض طويل ، ولو كان هذا الماضي مجهولا لدينا. فاللغة والأديات لا يوجدان فجأة

ووجودهما دليل على أن لهما ماضياً قديماً . مثال ذلك المدنية الأوربية الحاضرة فانها نتيجة عصور كثيرة . واوربا لم تصل الى هذه النتيجة الا باجتياز عقبات الانقلابات ، ومن قبيل الأوهام والخيالات أن تحلم أمة بأنها تجتاز تلك الدرجات على جناح السرعة .

نشأة الدول ونقض رأي (روسو) في (العهدة الاجتماعية) :

كان (يوسف دومستر) و (بونالد) قد ارتأيا رأياً في نشأة الدول بنياه على الأقانيم المذهبية ، ثم تبين الآن فساد ذلك الرأي الى حد أنه لم يعد يستحق المناقشة والجدال فيه ، لأنه ليس مؤسساً على شيء من مباديء العلم وقواعده . وكذلك شأن النظريات التي وضعها الديمقراطيون وفي مقدمتهم (جان جاك روسو) .

بلغ الرأي الديمقراطي غاية النضج والكمال في أواخر القرن السادس عشر ، وبدأ البروتستان يتركون نظرياته عقب قتل هنري الثالث . وفي القرن السابع عشر ظهر (هوبس) و (جوريو) فدافعا عن هذه النظريات وانتصرا لها ، ولكن

النتيجة كانت في الحقيقة أحد أمرين : اما استبداد الفرد أو استبداد الجماعة .

ثم جاء (روسو) أخيراً فلخص كل تلك النظريات في كتابه (العهدة الاجتماعية) :

يرى روسو أن أفراد البشر تنازلوا عن استقلالهم الطبيعي تلقاء ما حصلوا عليه من الأمن والثقة فتعاهدوا على أن يكونوا جماعة لا أفراداً . وبهذه العهدة ولد لهم كائن أخلاقي مشترك بينهم .

وأن الفرد فاضل بطبعه ، ولكن الرذائل والشرور انما تصدر عن الجماعة . فالأفراد فطروا على حب العدل والنزوع الى الخير والرضوخ للنظام ، وكانوا يكونون سعداء فضلاء لولا ما تسرب اليهم من مساوىء الجماعات .

والحرية والمساواة وسلطة الأمة من المواد الرئيسية في العهدة الاجتماعية ، حتى أن روسو أدخل ذلك بنصه فى بيانه الذي سماه « حقوق الانسان » .

والرأي الذى كان سائداً في زمن روسو أن الانسان

فاضل وعاقل بالطبع وأنه لا يتحرك حركة الا لسبب معقول : هكذا كان الأدباء والفلاسفة يقولون في ذلك الحين ، حتى أن رجال الدولة أيضا صدقوا هذا الزعم . من ذلك أن (تورغو) المشهور رفع الى الملك بياناً في موضوع التربيـة زاعماً أن الفرنسويين سيتبدلون به بعـد عشر سنوات بحال أخرى لا تكاد تصدّق . وزعم (نكر) أن الثقة بفضائل البشر الأخلاقية أمر واجب . أما في ألمانيا فان (كانت) و (فيختي) قد انتصرا لهذه النظرية قليلا حتى انبرى لتفنيدها واظهار بطلانها كبار الفلاسفة مثل (هيكل) و (استراوس) و (استوات ميل) و(سبنسر) و (أوغست كونت) و (تن) و (رنان) ، وحتى أن الاشتراكيين أيضا عدّوا ذلك الزعم من قبيـل المغالطة المنطقية ، ويرى (زومر ماين) أن نظرية العهـدة الاجتماعية ليست الا خيالاً .

أما نظرية سلطة الأمة فلا تزال اليوم من الدعاوى التي لم يحققها الواقع ، فهي اذن بديعة من بدائع الخيـال . واذا حاولنا أن نتكلم عن الجماعة من حيث هي مقيدة بتلك العهدة

نكون قد سقطنا فى دائرة لا مخرج لنا منها ، خصوصا وان فكرة العهدة لم تكن في زعمهم الا منذ كان البشر جماعة ، بل لو كانت العهدة موجودة ضمناً بين جميع أعضاء الكائنات الاجتماعية لما كانت أيضاً تشف عن قصد عام مشترك .

الفطرة البشرية :

ومن جهة ثانية فان العقل والحكمة ليسا من المواهب الفطرية في الانسان بل هو ذلك الكائن الذي وجد بين أنواء الصعوبات ، وهو الآن فى حال توازن غير دائم . ويقول العلم الفسيولوجي (وظائف الأعضاء) وعلم النفس : ان الانسان بطبعه مريض بقدر ما هو مجنون ، وان سلامة أعضائنا وصحة آرائنا ليستا الا من قبيل المصادفة البهجة والفوز الكبير ، وان عمل الدماغ بذاته أمر مشوّش ، والقياسات المنطقية والآراء السامية هما من الأمور التي اختص بها الخاصة من الفئة المتنورة . والحاكم على ارادة البشر هو البنية والحاجة والطبع الحيواني وقوة الخيال والأفكار الباطلة والأطماع والأغراض الشخصية الى غير ذلك من العوامل التي تشبه هذه . واذا كنا نذهب

الى الظن بأن الانسان فطر على الفضيلة والحلم وترجيح المصلحة الاجتماعية على المصلحة الخاصة فانما نكون قد خدعنا أنفسنا شر خداع . لأن طبع الهمجية والظلم الذي ورثناه عن جدودنا لا يزال كامناً في نفوسنا الى الآن ! وان شكل الدماغ البشري قضى على الانسان أن يكون أسير خيالاته وأوهامه من أول يوم وجوده . والتهيج الشديد والشبهات والعواطف والسذاجة — كل هذه من خصائصه التي يمتاز بها . ومن هذا يمكننا العلم بأن آراء (روسو) في الطبع البشري خيال في خيال .

تأثير الاقليم في تكوين كيان الدول الطبيعي :

عامل الاقليم من أهم العوامل في تكوين كيان الدول الطبيعي . والأوضاع السياسية والاجتماعية تتبدل بتبدل الوسط . مثال ذلك الأقوام التي تعيش في المروج والمراعي فان ضرورة الوسط تقضي عليها بأن تحيا حياة بدوية . ولحكومتها المركزية سلطة أبوية يقابلها ضعف في السلطة الاستبدادية ، وتتحرك في قلوب تلك الأقوام دائما آمال الفتح والاستيلاء على أمم الارض . وبالعكس من ذلك

الأقوام التي تعيش بالصيد والقنص في الحراج فان لحكومتهم المركزية قوة استبدادية خشنة تقابلها سلطة أبوية ضعيفة. ويضاف الى جهلهم بماضيهم أنهم لاأمل لهم في الفتح والاستيلاء.

سبب وجود الجماعات وتأسس الدول :

اذا بحثنا في منشأ أعرق الحكومات في القدم نرى أن الباعث على اجتماع البشر وتضامنهم انما هي ضرورة دفع هجمات الأعداء عنهم. وكل شيء في القرون الأولى كان مخيفاً لبني الانسان، وفي كل شيء خطر عليهم وتهلكة لهم. حتى كان الاتحاد على صد غارة الأعداء من حيوان وانسان أول فكرة خطرت على قلب أجدادنا.

لكل شركة نظام يلائم الضرورات التي اقتضت ايجاد تلك الشركه من العدم، وتكون هذه الضرورات في الجماعات الابتدائية على نوعين :

١ ـ ضرورة دفع الطواريء الداخلية على أعضاء الشركة
٢ ـ ضرورة دفع الطواريء الخارجية على أولئك

الأعضاء.

فهذه الضرورة المزدوجة هي التي دفعت الجماعة الى تأليف حكومة تتولى تنسيق قوى أفرادها واستعمالها في الدفاع عنهم. ولكن ليس معنى هذا أن أفراد الجماعة اجتمعوا في حرج - كما يقول روسو - وتفاوضوا في مواد عهدة عقدت بينهم وانتخبوا منهم لهم رئيساً، بل ان الرجل العاقل القوي الماهر من بين أفراد تلك العصابة هو الذي تغلب على اخوانه بمزاياه فكان رئيساً عليهم. والضرورات التي تبعث على وجود الحكومات في كل قطيع من البشر هي التي حددت للرئيس حدود التنسيق والوظائف الادارية والعسكرية.

ان البشر فطروا على الأنانية وحب الذات والميل الى الشر، وأقل اختلاف بين مصلحتي الفرد والفرد يحدث بينهما الخصومة والعداء ولكن التجارب علمت البشر أنه ليس من مصلحة الجماعة أن تحدث فيها حوادث القتل والسرقة، وأن سلامة الأفراد وسعادتهم منوطتين بقمع مثل هذه المفاسد والشرور، وهذا هو الأصل الذي بنيت عليه الشرائع

والقوانين كافة .

سلطة الفرد على الجماعات :

علمت الجماعة بالتجارب أن خير من يرأسها في وقت القنص وزمان الحرب هـو الذي يجمع بين مزيتي المهارة واعتدال الدم ، حتى أن الطير تختار لقيادتها والتقدم عليها عند ما تزمع الانتقال من اقليم الى آخر أشدها قوة وأنفذها نظراً ، فتراها قد انفصلت عنه وتبعته من خلفه .

كذلك كانت الدولة في بدء تكونها وأبسط أشكالها . وفي البتغونيين وأهل زلاندة الجديدة وسكان أوستراليا نموذجات كثيرة لهذا الشكل الدولي . أما الطسمانيون فلهم رؤساء غير دائمين ، فكانت القبيلة الصغرى اذا عزمت على سفر أو حرب انتخبت لهـا رئيساً عليها ، حتى اذا وضعت الحرب أوزارها أو آب القوم من سفرهم أصبح رئيس الأمس كغيره من الأفراد سواء بسواء .

الجماعات التي لا تعاني الحروب لا يكون لسلطة الفرد أثر فيها . والفوئيجيون وهم قبائل يؤلف الواحدة منهن عشرون

أو أربعة وعشرون شخصاً ليس عليهم رئيس البتة . وقبائل الاسكيمو أيضاً لم يخطر على بالهم اقامة رئيس عليهم ، وقد دهشوا لأول مرة ألقت سفن الأوربيين مراسيها في سواحلهم عند ما شهدوا من الجنود البحرية خضوعهم وطاعتهم لضباطهم .

تأثير الحرب في تعيين شكل الحكومات :

ليست الحرب الباعث الوحيد على وجود الحكومات الابتدائية ، ولكن الحكومة التي توجدها ضرورات الحرب تكون تحت سلطة الفرد . وقد علم بنو الانسان منذ الحروب الأولى أن النظام يأتي بقوة عظيمة تفوق قوة الكثرة . وكثيراً ما تمزقت الجماعات الصغيرة وذهبت ضحية الفوضى والأغراض ، حتى أدركت النفوس القاسية ضرورة الانقياد للأمر والرضوخ للكلمة في ساعات الشدة ، علم هذا أجدادنا حق العلم بعد حقائق مرة وتجارب ظالمة ، وان استبداد ملوك أميركا الجائر لا يزال حتى اليوم مثالا وشارة لذلك .

الحرب أم الحكومات المستبدة كافة ، ولا شيء مثل

نشوب الحرب يسلم زمام السلطة والحكم الى يد الفرد مثال ذلك أن الخطر العام الذي تهدد رومة في القرون الأولى هو الذي أوجد سلطة الحكومة العرفية — Dictature، ولكن ما انفرجت تلك الأزمة حتى عاد (سينسناتوس) زعيم تلك الحكومة الى محراثه . ومما يجدر بالذكر أن أكثر الممالك حباً للحرية أظهرت الحرب فيها رجالا كان ظهورهم في باديء الأمر بشكل الأبطال المدافعين عن مصلحة الوطن والحامين لحماه ، فلم يلبث أن نشأت السلطة الاستبدادية الى جنب ذلك العدو الذي يخشى على الوطن من أذاه .

الأمم الحربية ظلت — بحسب أقاليمها الجغرافية — محافظة على الحكم الاستبدادي في شكل الحكومة وخطتها. وكل بلاد واسعة الأرجاء كانت عرضة لهجمات جيوش الأعداء وظهور الثورات الداخلية فان حكومتها كانت استبدادية لا محالة. وعلى العكس من ذلك الأقطار الصغرى الآمنة بما يحيط بها من الجبال الطبيعية فان حكوماتها كانت بشكل جمهوريات صغيرة . فمملكة اليونان في الأزمنة القديمة ومملكة سويسرا

في الأزمنة الحديثة مثال للممالك التي لا يعرف أهلها الاستبداد ماداست أرضها ضيقة الحدود لاتحتاج الى الدفاع عنها بالحروب. وقوم التركمان — وهم في حال البداوة — تثيرهم فكرة الخضوع لسلطة الفرد.

تأثير الصناعة في تعيين شكل الحكومات :

والصناعة وان لم تكن من بواعث تكوين الحكومة الا أنها من العوامل - بعد الحرب - على تعيين شكلها، لأن الصناعة أول دواعي الاثراء، وبالتالي أول سبب لوجود التفاوت بين الناس.

ماارتقت الآلات قليلا على يد البشر حتى تبتعها الصنائع فتوسع نطاقها في حضن الجماعات الابتدائية، فكان أرباب الصناعات والنشيطون من الزراع يأتون بنتاج يربو على حاجتهم، فأوجدوا لهم ثروة من طريق بيع النتاج الزائد واستبداله. والذين صاروا بهذه الطريقة أصحاب ثروة استقلوا بصناعات خاصة.

ثم رأوا أنفسهم في حاجة الى المحافظة على ثروتهم من

اعتداء الفريق الفقير الطامع بها فسنوا لذلك قوانين ونظامات، أو بعبارة أخرى وضعوا للبلاد أساس الحكومة وشكلها.

وهذه الحكومة التي أوجدتها الصناعة والتجارة تختلف طبعاً عن روح الحكومة التي أوجدتها الحروب، لأن السلطة فيها ليست بيد الفرد، بل ان للتجار أيضاً نفوذاً وكلمة فيها. مثال ذلك جمهورية البندقية وجمهورية الفلمنك قديماً فهما نموذج لهذا النوع من الحكومات. ومثل هذه الحكومة تختلف كثيراً في أوضاعها عن الحكومة الحربية. فالملك صاحب السلطة العسكرية لا يكون له بين حنايا الأمة وثناياها رقباء. وأما الحكومة التجارية فيكون فيها طبقة من التجار والاعيان يتجسسون لصاحب السلطة أحوال الأمة، وصاحب السلطة نفسه يعتمد على الأمة التي تكون عرضة وهدفاً لظلم طبقة الأعيان والتجار ولضغطهم.

تأثير سلطة الكهنة في تعيين شكل الحكومات:

وهنا لك قوة ثالثة في تعيين شكل الحكومات وهي سلطة الكهنة في الايمان بالأساطير والعقائد الباطلة وما

يزعمونه من الوساطة الكاذبة بين الخلق والحق أو بين الشعب وآلهة الأساطير وتفسيرهم اراداتها ودعائهم اياها لتخفف من ثورة غضبها .

مثّل الكهنة أدواراً هامة جداً بين المصريين وبني اسرائيل في الازمنة القديمة ، حتى كانوا في مصر يعبدون الفراعنة بعد موتهم ، وحتى كان (رومولوس) و(ريموس) (١)

(١) (رومولوس) و(ريموس) ابنان توأمان ولدتهما الراهبة (ري سيلفيا) خادمة معبد(فستا) بطريق الزنا ، وزعمت أن أباهما هو (المريخ) اله الحرب . فقضى عليها سكان مدينة (آلب لونغا) عاصمة مقاطعة (لاجيوم) بأن توأد حية ، وقضوا على توأميها بأن يرسلا الى أبيهما (المريخ) في مجرى نهر (تيبر) . فألقاهما اليم في سفح جبل (بالاتين) تحت شجرة من التين ، والتقطهما أحد الرعاة فترعرعا عنده . ثم التحقت بهما عصابة من اللصوص وأهل الدعارة فعاثت معهما فساداً في الارض . وانتهى الامر بالتوأمين أن عادا الى جبل (بالاتين) فشيدا هنا لك مدينة أراد كل منهما أن يسميها باسمه ، الى ان قتل(رومولوس) أخاه(ريموس)سنة ١٣٧٦(ش)قبل الهجرة وأطلق على المدينة اسمه.وهي الان مدينة (رومة)عاصمة ايطاليا التي لم يرض مؤسسها لنفسه أن يكون ابن زنا وقاطع طريق فقط بل

البين لآله الحرب ، ولا يزال لامبراطور الصين ولملك سيام مثل هذه الالقاب وهذه المكانة الى اليوم.

* * *

وبالجملة فان القوة السياسية نتيجة ارتقاء اجتماعي. والضعفاء دائماً طعمة للقوي. وكما تكون القوة مادية فقد تكون أيضا دينية وأخلاقية أو فكرية وربما تكون في بعض الأحيان اقتصادية. ويقول (ماركس) ان القوة الاقتصادية هي العامل الوحيد في القوة السياسية ، الا أن هذا زعم غير صحيح ، وان كانت القوة الاقتصادية قد لعبت دوراً هاماً في تاريخ الأوضاع السياسية.

الحكومة السياسية ، وتأثير التضامن في تكوين الامة :

الحكومة السياسية حادث من الحوادث الاجتماعية، وهذا الحادث لا يكون الا على نوع واحد ، ومهما تفاوتت

زاد على ذلك أنه سفك دم أخيه في سبيل تخليد اسمه !وقد اتخذ الرومانيون هذه الحادثة مبدأ تاريخ لهم.

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

الجماعات في صغرها وكبرها فهذا التفاوت بينها بالدرجات لا بالطبائع.

يرتبط الناس بعضهم ببعض بروابط التضامن الاجتماعي، وبهذا التضامن فقط يمكننا أن نستوفي حاجاتنا. اذ حاجات الناس وقابلياتهم متفاوتة ومختلفة بحيث تقضي على أفراد البشر بالتضامن والتعاون على طريقة توزيع الاعمال والوظائف فيما بينهم.

تعدلت خطة أجدادنا الاجتماعية بفضل سنة النشوء عند ما انتقلوا من دور التوحش الى دور البداوة، فاتحدت قبائل كثيرة بما طرأ عليها من ضرورات الاقليم أو مقتضيات الحروب وكان من اتحادها مجموع جديد هو مانسميه «أمة». ثم انتسخت عادة قتل أسرى الجيش المغلوب منذ ظهرت طريقة الاسترقاق الزراعي وطريقة الزعامة فصاروا يستعملون هؤلاء الأرقاء في المزارع، وقضى البشر على تلك العادة القضاء الاخير بعد أن ظهرت الصناعة الكبرى بمظهر آخر وصار وجودها متوقفاً على توفر شرائط ووسائل معينة.

هذا الارتقاء هو الذي أوجد القوميات ورفع الرؤساء الى منصات الملك ، ومع ذلك فان الملك كان قبل كل شيء أكبر قائد في الجيش . وتاريخ قدماء المصريين والآثوريين وتقاويم أمم أوربا دليل على ذلك .

حياة الجماعة ، وارجاع التضامن الى مبدأين :

يرى بعض علماء الاجتماع أن للجماعة حياة حقيقية ، ويذهب الى وجود ضمير اجتماعي غير ضمير الافراد . وقديماً كان افلاطون وأرسطو يتصوران الجماعة بصورة كائن عظيم حي كأنما هي حيوان ذو مئات من الرؤوس . ومن مؤلفي زماننا أناس مثل (فورمس) يزعمون أن الجماعات ذوات حياة حقيقة ، ويقولون في الاستدلال على صحة زعمهم : لننظر في سنن الحياة التي تدار بها الصفة العضوية في الجسم الحي ، فقد أجمع المشتغلون بالعلم الفسيولوجي (وظائف الاعضاء) على أن الطبيعة الاولى من الطبائع الأساسية للاجسام الحية هي أن يعمل كل عضو من أعضاء مجموع الجسم الحي على ما فيه بقاء حياة مجموع ذلك الجسم . مثال ذلك أن النبات مؤلف من

الجذور والاوراق والزهور وغير ذلك من الاعضاء ، وكل واحد منها يسمى منفرداً لما فيه بقاء حياة المجموع .

وهذا التضامن يمكن ارجاعه الى مبدأين اثنين :

الاول — توزيع الوظائف بين الأعضاء المختلفة ، وتعيين حدود هذه الوظائف.

الثاني — وجود غاية تسعى الاعضاء لها من طريق التضامن .

وهذان المبدآن يوجدان في كل جماعة من جماعات الانسان والحيوان . وذلك لان توزيع الوظائف اذا لم يوجد في جسم فمن العبث البحث عن تكون العضوية في ذلك الجسم فاذا رأينا مثلا أكمة من الرمل متشابهة الأجزاء والاقسام وكلها تقوم بوظيفة واحدة نحكم بأن هذه الأكمة الرملية ليس لها وظائف متوزعة بين اجزائها ، وبالتالي لم تتكون العضوية فيها . وكذلك تكون الحالة في المجتمع البشري ، فان الفريق من الناس اذا كان كل فرد من أفراده يعيش على اعتزال واستقلال ولا تتألف منه جماعة ـ فهذا الفريق لا يزال في طور التوحش .

توزيع الوظائف :

تبتديء العضوية عند ما تتوزع الوظائف على أجزاء المجموع ، كأن يشتغل أحد أجزاء النبات بامتصاص عُصارة التراب ويلمس جزء آخر منه طبقات النسيم ليتنفس منه ويجعله نقياً . وكذلك شأن البشر اذا وزعوا الوظائف فيما بينهم فتفرغ بعضهم لحرث الارض وآخرون لنسج اللباس وغيرهم لتشييد المنازل — ففي هذه الحال تصح تسمية هذا الفريق من الناس « جماعة » .

يذهب (ميلن) الى أن توزيع الاعمال في العالم الاقتصادي من حيث الأدوار يشبه توزيع الوظائف في العالم الفسيولوجي. وهذا التوزيع يوجب خصوصية الكائن الحي كما يوجب خصوصية الجماعات وواجباتها وأعمالها . مثال ذلك أن المعدة في الكائن الحي لا تعمل عمل القلب ، كما أن القلب لا يعمل عمل المعدة . ومما تقدم يتبين أن توزيع الوظائف في تحقيق الحياة وظهورها قائم بمعنى التضامن والتعاون ، فالدماغ مثلا لا يعمل بنفسه ليحصل على غذائه بل ان المعدة هي التي تعد

له غذاءه والقلب يرسله اليه . وكذلك القول في الجماعة فان من الضروري أن يتولى بعض أفرادها أمر الدفاع القومي بينما يكون البعض الآخر قائماً بقضاء المصالح العامة . فهذه الصلة وذلك التضامن بين الاعضاء العاملة هما من الاعمال التي يقصد بها المحافظة على مجموع الجسم الذي هو الجماعة . وكل عضو عامل يكون بالنسبة الى الأعضاء الأخرى واسطة وغاية في آن واحد : الزارع خادم للحاكم والحاكم أيضا خادم للزارع ، وكل عضو من أعضاء الجماعة عون لزملائه.

هذه الأعمال بمجموعها حلقات في دائرة الحياة ، وكل قوم وكل أسرة في هذا المجتمع البشري تتألف منه ومنها دائرة حيوية كهذه الدائرة .

الأجهزة الحيوية في الدولة :

بحث (سبنسر) في الكائنات الحية فرأى فيها ثلاثة أجهزة كبرى لثلاثة أنواع من الوظائف: الجهاز الهضمي، والجملة العصبية ، وجهاز التنفس .

كذلك الحال في الدولة : ففريق فيها يعدّ للمجموع حاجته

من الغذاء ، وفريق ثان يتولى ادارة الدولة والاشراف على صلاتها بالخارج ، وفريق ثالث ـ وهو الفريق المتوسط ـ يتعهد توزيع نتاج الأرض ليتصرف به الآخرون .

هذا العمل أشبه بجهاز الدورة الدموية في جسم البشر ، وأنت ترى أن الزراعة والحكومة والتجارة أعضاء ثلاثة تقابل أعضاء الحياة الثلاثة التي تتولى ادارة حياة الحيوان .

الا أن هنالك ملاحظة لا ينبغي لنا اهمال النظر فيها ، فلسائل أن يسأل : « هل يجوز لنا الحكم على الدولة بانها حية بمجرد توفر هذه الاقسام فيها ؟ ان آلة الساعة أو آلة الباخرة تشبه الكائنات الحية ، فهي مثل الأحياء مركبة من أعضاء تتوزع الوظائف بينها وتتعاون على اتمام عملها ، الى حد أن الأطفال والمتوحشين من البشر يعتقدون بأنها كائن حي : اذن فما هو الفارق بين الآلة ذات الحياة وبين الآلة غير ذات الحياة ؟ »

يقول (لاينتس) : « الآلة المتحركة المركبة من الخشب أو من الحديد ليست بذاتها ذات عضوية متكوّنة ، في حين

أن لكل كائن من الكائنات الحية عضوية متكونة وحياة مستقلة . وكل عالم حيّ جامع لألوف من العوالم الحية على درجات متفاوتة . »

وقد برهن (فيرخوف) و (كلودبرنار) على أن كل حيوان مؤلف ومركب من حيوانات كثيرة أبسط وأحط منه . وفي أجسامنا كائنات كثيرة ذات حياة مستقلة ، وهي تحيا بالغذاء الذي تمتصه من دمائنا . ولهذه الكائنات الصغيرة قابليات وأطماع وأمراض وحركات خاصة بها . واذا شطرنا الدودة شطرين ظل كل واحد منهما حياً . نعم إن الحالة في الحيوانات الراقية ليست كذلك ، ولكن من أعضاء جسم هذه الحيوانات ـ كالأظافر والشعر مثلا ـ ما يحيا مدة بعد موت ذلك الجسم ، وطول أظافر الانسان وشعره بعد موته دليل على وجود الحياة فيهما . كذلك يمكن الصاق أذناب الفيران المتعددة بجسم فأر واحد واتصال الحياة بعد ذلك بين الأذناب المتعددة وبين جسم ذلك الفأر .

سنن الاجتماع في المحافظة والتجديد :

ان ما تقدم معنا عن وجود ضمير اجتماعي خارج عن ضمائر الأفراد هو أمر لم يقم عليه برهان بعد . كما أنه لم يثبت لنا تكون عضوية اجتماعية خارجة عن عضوية الأفراد . وكل ماننقلة من هذا القبيل انما ننقله ونذكره على سبيل القياس والاستعارة ليس الاَّ .

ولكن الذي لا مرية فيه أن للعالم الاجتماعي - كما للكائنات الطبيعية - نواميس وسنناً ثابتة : فأول ذلك أن الأجزاء التي يتألف منها مجموع الدولة مرتبط بعضها ببعض بحيث لا يحدث في أحدها حدث حتى يتأثر به البعض الاخر بسرعة .

وبناء على هذه السنة الاجتماعية يجب على المقننين والمشرعين أن يكونوا من الدولة بمنزلة الأطباء فلا تفوتهم الحيطة والحذر وحسن التبصر فيما يعملون . اذ ربما ينصرفون الى مداواة الضعف في أحد الاعضاء فيفوتهم في أثناء ذلك النظر الى غيره ويحدث على أيديهم مرض آخر شر من الذي كانوا يحاولون مداواته .

وعلم الجماعة ينحو من جهة نحو نصرة المباديء الجديدة لما في المستقبل من أشكال الحياة الاجتماعية التي تفضل الحياة الماضية ، ويحضّ من جهة ثانية على الاحتفاظ بالقديم وينصح للأمم برعاية ماضيها ومقوماتها وخصائصها وأن لا تقبل على التعديل والاصلاح الا بالتدريج . ونحن اذا نظرنا في حقيقة الامر نجد أن ارتقاء الأمة وتقدمها في سبيل الحضارة منوط قبل كل شيء بتغير تلك الأمة. وهذا يكون باتصافها بأوصاف جديدة وبالتالي قبولها التغيير بالتدرج البطيء . وفي كل الاحوال يتوقف الارتقاء على أمرين اثنين :

الأول — وجود قابلية التبدل ،

الثاني — التثبت والتأني.

وواجب على كل أمة لتترقى في معاريج الحضارة أن تتمسك في باديء الامر بالنواميس الثابتة والقطعية .

وصفوة القول أن الشرط الأول لاتساع نطاق الحضارة في أمة من الأمم انما هو شرط مزدوج ويظهر طرفاه بمظهر التناقض والاختلاف . وأي تناقض في الظاهر أكبر مما بين

ضرورة تمسك الأمة بمبادئها وأوضاعها ومقوماتها وبين ضرورة عدم التمسك بهذه الأمور ؟

جمود الأمم القديمة في تقاليدها:

ان من الصعب اكتشاف مركز التوازن الصحيح بين هاتين الطبيعتين والعض عليه بالنواجذ . ونادراً ما انتبهت الأمم الى حلّ هذا اللغز المعقد . اذ التعنت في التمسك بالقديم من العادات والأوضاع زمناً مديداً — كما فعلت الصين — أكبر مانع للتقدم والارتقاء ، كما أن التسرّع في التحول من حال الى حال يزيل من الأمة ومن مقوماتها خاصة الالتصاق والارتباط ، وليس بعد هذا غير الانحلال والاضمحلال .

أما القابلية وتبدل المقومات فليس لهما معنى غير معنى ملكة الانقياد للعالم الخارجي، ولقد كاد يكون طراز الحياة في القديم سواء عند الناس أيان وجدوا . ولهذا كانت ضرورة التحول ضعيفة عندهم وتولّد القابلية لذلك بطيئاً فيهم، حتى أن بعض الأمم القديمة ظل عصوراً لا يشعر بضرورة تحوّله عن طراز معيشته، لأنه كان على اتصال دائم بالأقوام التي هي متوحشة مثله فلم

يكن يجد أمامه مايدعوه الى التعديل والتبديل ويرغبه بالتقدم والارتقاء، وظلت فكرة التقليد فيه جامدة تجاه نموذجات متماثلة.

والسرّ في جمود الأمم القديمة عند تقاليدها وعاداتها أنها مدفوعة الى ذلك بضرورة الذب عن كيانها والمحافظة على حياتها، لذلك لم يكن أحد ليهتم بأمر الفرد، بل لم يكن للفرد أن يحيا حياة مستقلة، ومن الأمور الطبيعية في نظرهم أن يضحى الأفراد باسم المصلحة العامة. فالحرية الشخصية في تلك الأزمان كانت من قبيل الأوهام التي لا تخطر في بال أشدهم تطرفاً. ولقد اتخذ بعض عباد الخيال نموذجاً للحرية من جمهوريات اليونان التي كان أفراد الناس فيها راسفين في قيود من النظامات لاقبل لنا اليوم بتحملها والتقيد بها، تلك النظامات التي لم تعترف بحرية التدين بل ولا بحرية التربية والتهذيب، وفي اسبارطة لم يكن لأفراد الشعب حق الحرية في ترتيب مآكلهم وكلهم ملزمون بتناول الطعام على موائد عامة. وكان الداعي الى الاصلاح والتجديد في المدنيات الابتدائية يعد عدواً، حتى أن الأمة بمجموعها قامت على سقراط تطالب باعدامه!

هذه النظامات ضرورية بحكم البداهة في الأمم التي يتهددها العدو الاجنبي في كل يوم . والرومانيون هم الذين نجحوا قديماً في اكتشاف مركز التوازن بين طرفي التثبت وقابلية التحول . لأن الفتوحات أوجدت صلة دائمة بين رومة والأمم الأجنبية ، وكان ذلك باعثاً لها على ادخال التعديل في أوضاعها ونظاماتها بما يظهر لها من العوامل الجديدة . وأسعد أيام الرومانيين هي الايام التي تمسكوا فيها بمركز التوازن بين ذينك الطرفين .

اهتداء الانكليز الى مركز التوازن :

أما في هذه الأيام فقد أحدثت الاكتشافات العلمية والصناعية وسرعة انتقال الآراء والأفكار احتكاكاً بين المدنيات المختلفة كان من نتيجته تعرّض الأمم لتبدل وتغير عظيمين في أسباب حياتها وبقائها ، حتى صار من النادر العثور على توازن صحيح . وهذا التبدل السائد هو مصدر الثورات المتعاقبة . وأمة الانكليز هي وحدها التي حذت حذو الرومانيين في التمسك بمركز التوازن بين الاحتفاظ بالقديم والأخذ بالحديث .

تمسك الانكليز — دون غيرهم — بأوضاعهم السياسية والاجتماعية التي مرت العصور عليها ، وما زالوا يصلحونها بتؤدة وانتظام وبلا تردد . وحرية بلاد الانكليز ليست من عمل (كرومويل) ولا من آثار أنصار الجمهورية عام ١٦٤٩ (١)

(١) لما اشتدت وطأة الاستبداد في انكلترا على عهد (شارل الاول) من أسرة (ستوارت) أخذ زعماء الانكليز وكبارهم يهاجرون الى أميركا حتى خلت بعض الجهات من سكانها فاضطرت الحكومة الى منع المهاجرة . وفي يوم اعلان المنع رسمياً كان في نهر التيمس بعض سفن لنقل المهاجرين وكان بينهم (كرومويل) فحالت الحكومة دون سفرهم ، ولما فقد الاهالي وسيلة الخلاص بطريقة المهاجرة لم يبق لديهم الا اعلان الثورة التي عين (كرومويل) في أثنائها عضواً في مجلس العموم ثم قائداً عاماً للجيش الذي من حزب البارلمان . ثم أعلنت الجمهورية في بلاد الانكليز فعين (كرومويل) رئيساً عليها وسمي (لورد بروتكتور). وأخذ باعادة الامن والاصلاح للبلاد ، الا أنه أظهر شدة نفرت منه النواب والشعب وآخذه التاريخ عليها (سنة ١٠٢٧ هـ.ش و١٦٤٩م.ش)

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

م . ش بل هي بنت التاريخ الانكليزي، وهذه العظمة والقوة التي يباهي الانكليز بهما نتيجة التوازن المعتدل بين التثبت وقابلية التحول.

يتبين مما تقدم أنه ينبغي لكل أمة أن تكون ذات أخلاق وتقاليد ثابتة لا تتبدل بسرعة وأن تكون أخلاقها وعاداتها — في الوقت نفسه — لينة الى درجة يمكن معها أن تتبدل بالتدريج . والتاريخ مملوء بأنقاض الأمم التي لم تدرك معنى هذا اللغز المعقد .

الارتقاء خير من الثورة :

ان للطبيعة الأساسية للجماعة نتيجة كبرى غير النتيجة السابقة وهي أن « طريقة الارتقاء » خير من « طريقة الثورة » ولكن يتفق في بعض الاحيان أن تكون العلة التي تطرأ على العضو لا ينقذه منها غير الانقلاب ، كبعض الأمراض التي تباغتها الحمى فتذهب بها ففي مثل هذه الحال يكون الانقلاب من الضروريات وبالجملة فان « الارتقاء » سنة عامة و « الثورة » أمر شاذ .

والثورة تكون مشروعة اذا جاءت موافقة للرأي العام وآمال الأمة ، وهـذا النوع من الثورات هو الذي تثور فيه عواطف الامة كلها . والثورة — من أي طريق أتت — تدل على تبدل أساسي .

فالاصلاح هو أن تتسع دائرة الحقوق اتساعاً طبيعياً ، وعلى العكس من ذلك الثورة فهي الانتقام ، وهي حركة غير طبيعية تكتنفها الفظائع وتحيط بها الآلام .

الثورة أزمة مهلكة تتهيأ للبلاد اذا فات وقت الاصلاح الذي لم ينفذ عند الحاجة اليه ، فيعم المرض جميع أطراف الجسم الاجتماعي ، ثم يتمخض بهـا . وذلك أن النشوء الطبيعي قد يعترضه في سبيله عائق يمنعه من أن يأخذ حده ، فتثور الحياة الاجتماعيـة التي كانت تحت ضغط ذلك العائق وتنفجر فجأة محطمة ما حولهـا من القوى الضاغطة . فالثورة ليست قاعدة ولكنها حادثة .

والحكومة اذا كانت بشكل لا يلائم الحـال والوسط وآمال الأمة ، ولم يكن للأمة وسيلة شرعية — غير استعمال

الشدة — للتخلص من شكل الحكومة الذي لا يحتمل ، فحينئذ يكون قد أزف وقت ظهور الثورة . من أجل ذلك كان من الواجب تنفيذ الاصلاح عند الحاجة اليه ، والاَّ كان للأمة القوية أن تستعمل حقها الطبيعي المشروع في تعجيل تنفيذ الاصلاح قبل فوات وقته . وعلى هذا فثورة الهولنديين (١)

(١) لم يكتف (فيليب الثاني) ملك اسبانيا باخلاء مملكته من البروتستان ، بل صار يتدخل في الممالك الاجنبية لهذا الغرض . ولما كان أكثر سكان (هولندا) التي هي وطنه الاصلي على هذا المذهب أخذ يقاوم البروتستانية والهولنديين الذين فطروا على حب الحرية والحق ، فوجه على شقيقته (مرغريت دي برمه) منصب الولاية العامة على هولندة وجعل السلطة الحقيقية في يد مستشارها الكردينال (غرانفلا) ونقض نصوص العهود بارساله جيشاً اسبانيا الى هولندا وأسس محكمة تفتيش وكثر اعتداء الموظفين الاسبانيين على الاهالي، حتى ثار الشعب في بعض الجهات فهجم على الكنيسة الكاثوليكية ونهبها. ثم تولى قيادة الحزب المعارض البرنس (غليوم دورانج) والكونت (اغمونت) وهما من أكبر القواد . فغضب ملك اسبانيا وعزل شقيقته عن الولاية العامة وولى عليها (دوق ألبا) وعززه بجند جديد .

ولما شعر كليوم دورانج وزملاؤه الزعماء بقرب الخطر خرجوا

على الاسبانيين، والانكليز على أسرة ستوارت[١] المالكة،

من هولاندا احتياطاً الا الكونت اغمونت فانه أعرض عن نصح اخوانه وبقي في البلاد الى أن وصل دوق ألبا فسجنه أولا ثم أتهمه باهانته له وحكم عليه وعلى الاميرال (هورن) بالاعدام ثم أوقد النار في ساحات المدن وجعل يحرق الاهالي البؤساء وألف مجلساً سماه (مجلس الثورة) وفي ثلاثة أعوام فقط أعدم هذا المجلس وأحرق ثمانية عشر ألف هولندي. وأطلق الهولانديون على هذا المجلس اسم (مجلس الدماء)

وعلى أثر هذه المظالم الشنعاء أخذ الهولنديون يفرون الى ألمانيا وانكلترا وهنا لك ألفوا جيوشاً منظمة ومسلحة وعادوا الى هولندا بقيادة (كليوم دورانج) لمقاتلة الاسبانيين في صفوف الشعب الذي نهض للثورة. وأنشأت جالية الهولنديين في انكلترا سفائن لاقلاق الاسبانيين في سواحل هولندة، الى أن أعيا الامر فيليب الثاني فعين ثمناً لرأس كليوم دورانج فجاءه به أحد أتباع الجزويت (الكاثوليك)، الا أن قتل زعيم الثورة لم ينفع الاسبانيين لان ابنه (موريس) قام مقامه في الزعامة من كل الوجوه (سنة ٩٦٢ هـ. ش)

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

(١) راجع هامش صفحة ٥٢

والألمان على نابليون (١) والشعوب الايطالية على الدولة

(١) حط نابليون بونابرت من كرامة مملكة بروسيا بمعاهدة (تلزيت)، فذهب نصف المملكة ضبطاً وتمزيقاً وضربت الغرامات الحربية الباهظة على النصف الآخر، واحتلت الجنود الفرنسوية قلاع بروسية على أن تبقى فيها الى انتهاء دفع الغرامات وتتولى بروسيا نفقاتها، الى غير ذلك من الامور التي ذهبت بصبر الالمان فأخذ أدباؤهم يذكرون الشعب بمجده المؤثل وعظمته القديمة وينبهونه الى ضرر الانقسام وعواقبه، حتى كان لذلك الأثر النافع في طبقات الامة وتألفت (جمعية الحمية Tugend Bund) فدخل فيها القسم الاكبر من أعاظم الالمان، ثم جعلوا ينظمون جيوشاً متطوعة لامداد الحكومات التي تحارب نابليون، ومنها جيش اللجيون الاسود (Légion noire) الذي كان يقوده (دوق برونسويك) في حرب النمسا مع نابليون

وأخذ (آرندت) استاذ التاريخ العام في جامعة (غريسوالد) الالمانية يؤلف الكتب في ايقاظ الرأي العام الالماني فبيع في مدة شهرين أو ثلاثة أشهر فقط مائتا ألف نسخة من كتابه (روح الزمان) وطرد (آرندت) من ألمانيا بأمر نابليون.

وفي مقدمة الذين كانوا يعملون لهذا الغرض (فردريك ويلهلم) ملك بروسيا، فقد ألف وزارة من محبي البلاد عملت للاصلاح، وأهم

النمسوية (١) انما هي ثورت محقة ومشروعة .

رجالها (ستين) رئيس الوزارة و (شارنهورست) وزير الحربية ، فعمل الملك ووزارته على اصلاح الجندية، وكانت معاهدة تيلزيت قد حظرت على بروسيا أن تجند أكثر من ٤٢ ألف جندي ، فقابل البروسيون ذلك بأن أنزلوا مدة التجنيد الى ثلاث سنوات وصاروا يعلمون الشبان قواعد الجندية بسرعة و يستبدلونهم بآخرين على أن يجيبوا أول دعوة الى الجندية متى أرادت الحكومة ، وبهذا تمكنوا من ايجاد بضع مئات من ألوف الجنود النظامية المحفوظة أسلحتها وألبستها في المخازن .

وأسس (ستين) مدارس كثيرة وأطلق للزراع الارقاء حريتهم ومنع التعذيب والعقوبات الصارمة الباقية من عصور الزعامة ولما رأى نابليون ثمرات ادارة هذا الرئيس سعى لتنحيته عن السلطة ، الا أن الذين خلفوه لم يتركوا طريقته في الاصلاح .

ثم دخل نابليون في حرب مع الروس خذلت فيها جنوده. فأذاع (فردريك ويلهلم الثاني) ملك بروسيا بياناً أعلن فيه حرب «الاستقلال الالماني» فأجابه الشعب الى ذلك بكل فرح . وتطوع تلاميذ المدارس للحرب بقيادة أساتذتهم واشترك معهم الروس ثم النمسويون حتى أعادوا نابوليون الى حدود فرنسا (سنة ١١٩١ هـ . ش)

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

(١) تقرر في مؤتمر فينة أن تبقى (نابلي) في يد حاكمها القديم

طبيعة الثورة وواجب الحكومة من قبل ومن بعد :

الثورة في الاكثر الغالب تشبه انفجار البركان أو هبوب العاصفة : تعدّ معداتها ببطء ، فتكون الفكرة الجديدة منحصرة بين أشخاص ، ثم تنتشر حتى تدرك الجمهور . كذلك هي المطامع تنبعث فيها الروح رويداً رويداً ، حتى يكون الامل بالتبديل عاماً شاملاً ، ثم يتحول الاستياء الى غضب كامن ،

وأن تكون أواسط ايطاليا للبابا ، والجانب الشمالي منها للنمسا ، وظلت أمارة (سافويا) التي في جزيرة (سردينية) مستقلة . وهذه الامارة الصغيرة هي التي عملت فيما بعد على اتحاد ايطاليا واستقلالها .

ولما أخذت مبادئ الحركة القومية تنتشر في ايطاليا وتظهر نتائجها أرسلت الدول الكبرى الى تلك البلاد جنوداً لتسكين الحال ، الا أن حكومة النمسا سلكت في ذلك طريق الهمجية وارتكبت المنكر من الفظائع ، ومع ذلك فانها لم تتمكن من عمل شيء ، وزادت الشعب تعلقاً بتلك المبادئ وسعياً لتحقيقها . الى أن أعلن فكتور عمانوئيل الحرب على النمسا بمساعدة نابليون فانتصر عليها بهمة كافور وغريبالدي ، وأمضيت شرائط الصلح في (فيلافرانكا) ومنها أن ينجلي الاحتلال عن ايطاليا كلها الا البندقية (سنة ١٢٣٧ هـ . ش)

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

وعندئذ يكون جمهور الشعب على أهبة الاقتداح والاشتعال، وأقل شرارة تظهر في تلك الاثناء تكون مدعاة لاضرام نيران الثورة.

من الواجب على رجال الدولة في هذه الحال أن يبادروا الثورة قبل اضطرامها بأن يتعجلوا تنفيذ الاصلاح. أما اذا حم القضاء والتهبت نارها فما عليهم الا أن يتلافوا الضرر بأن يتولوا ادارتها ويتعهدوا قيادتها.

لا أمن في الدولة عند نشوب الثورة، والاحقاد تحول مجاريها من حال الى حال بين كل دقيقة وأخرى، والتاريخ تشحن صفحاته ابان ذلك بأنواع الجنايات والفظائع.

والثورة أكبر هادم للثقة العامة بالبلاد، وبها تشتد المخاوف، ويفقد الامن، ويعطل دولاب التجارة والصناعات، وينقطع العمال عن الأعمال؛ وتصبح المصالح العامة مهددة بالمهالك.

لهذا كان واجباً على رجال السياسية أن يكتشفوا روح الزمان قبل انتشارها، فيسلكوا في الادارة طريقاً يلائم الرأي العام من قبل أن يحدث مالا تحمد عقباه.

الشيوخ والشبان :

من الملاحظات الهامة في هـذا الباب أن الشيوخ أقل استئناساً بالآراء الجديدة من الشبان ، وليس لهـم من الجلد والرشاقة ما يساعدهم على سلوك الطرائق الحديثة . وقد ثبت في العلم الفسيولوجي أن الجريان العصبي يطوف الطرق المعتادة بأسهـل مما يطوف الطرق الجديدة . فبينما الشاب يقتبس الفكرة المبتكرة برفق اذا بالشيخ لا يستطيع اقتباسها الا بجهد. وسرّ ذلك أن الشيوخ قد ألفوا ما ألفوه من قبل، وضعفت فيهم حركة المجموع العصبي حتى صارت لا تقاوم قوة الاعتياد القديم لتظهر عليه .

صعود الآراء الجديدة وسقوطها :

تتجلى روح الزمان في طبيعة الأزمان المختلفة وفي نزعاتها وميولها . وأدوار التـاريخ العظمى هي الغضون الواضحة في جبهة روح الزمان . والآراء الجديدة في آفاق الانسانية أشبه بالـكواكب الدراري : فتـارة في صعود وآونة في انحدار . كذلك هي الآراء والمباديء الحديثة فما ارتفع منها الآن الى

أوج العلى قد يصير في الغد تافها ومنبوذاً من الناس . مثال ذلك الثورة الفكرية في الرأي العام الأوربي التي أثارتها الدعوة الى الحروب الصليبية فقد طرأ عليها الضعف والوهن فانطفأ نورها بعد ان شاعت وانتشرت في أرجاء أوربا فماجت بها وهاجت .

ثم جاء دور النهضة (١) بعد دور الحروب الصليبية بقرن

(١) دور النهضة ـ Renaissance في أوربا يقابل دور النهضة العربية في الشرق على عهد المنصور وهارون الرشيد ، فقد كانت الحرب تنشب بين ملوك أوربا حتى اذا انتصر الواحد على آخر أخذ منه كتاباً أو صوراً نفيسة بدلاً من الغرامة الحربية . واذا اكتشفوا كتاباً مفقوداً أو تمثالا مجهولا أقاموا لذلك حفلات الفرح والابتهاج ولم يقصر البابا وات عن الملوك في نشر العلم ، فقد افتتح البابا أوجن الرابع جامعة رومة ونظم البابا نقولا الخامس مكتبة الفاتيكان وندب بعض العلماء الاثريين للبحث في بلاد الحضارة القديمة عما اندثر من مؤلفات الحكماء السالفين . وأنفق المديجيون في فلورنسة وألفونس الفاضل في نابلي ولذريق مور في ميلان ملايين من النقود في سبيل العلم وسرت هذه الحال الى كل صقع في غربي أوربا ، الا أن ايطاليا كان لها القدح المعلى في هذا الامر لانها قبر رومة القديمة وأقرب الى الشرق الذي كان يومئذ مركز الحضارة ولها معه علاقات تجارية . وكان

واحد . وتبعهما الانتقاض ورد الفعل . وكل هذا يؤيد ماقلناه من أن لكل دور آراء ونزعات خاصة به ، وكل منها يمكن تطبيقه في حينه . فاستعداد نابليون مثلا لم يكن لينكشف في زمن الاعادة (١) .

اعتقاد العلماء في أرسطو الى ذلك العهد أنه معصوم عن الخطأ وبمنزلة البابا في الكنيسة ، حتى جمد العلم عند اقتباس مذهبه من مؤلفات العرب بشرحها ومسخها والاستنباط منها في دائرة ضيقة . فصار من لوازم النهضة خرق هذه الدائرة التي تحولت الى بؤرة جهل ومستنقع تقليد ، وهي لا يتسنى خرقها الا بالاعتماد على مؤلفات أحد الفلاسفة القدماء ، لذلك قام (فيجين) الايطالي في فلورنسة فعمل على ترجمة مؤلفات افلاطون وشرحها ، واقتبس هو وزملاؤه شيئاً كثيراً من علوم العرب في انتقاد أرسطو واسقاط طريقته وأنصارها من أعين الطلاب . وكانت صناعة الطباعة والورق قد أخذت يومئذ في الانتشار فصار لها الاثر الصالح في تقرب أجزاء الاسرة البشرية بعضها من بعض وانتشار الآراء والمباديء الجديدة .

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

(١) الاعادة ـ Restauration حدثت أكثر من مرة ، ففي شهر ابريل من سنة ١١٩٢ هـ . ش أعلن تاليران وزير خارجية فرنسا

الزمان يبدد القوى التي كان عززها وأسماها ويوقظ قوى أخرى لا تزال مجهولة، حتى كأنما القوى تدور مع رياح السعد: وكم من أماني تقادم عهدها فانطفأ نورها، وأخرى جديدة تأخذ بضيائها الأبصار.

روح الزمان:

روح الزمان لا تستقر عند نقطة واحدة: فهي تتفشى في كل جهة متنقلة في ثنايا الامواج الضخمة، وهي كالنسيم توجه وجهها الى كل أفق.

روح الزمان منبعث الحياة والحركة للأمم، وحركتها مفعمة بالأسرار، فهي تنفذ فينا نفوذ الهواء الذي نتنفسه. وقد تكون مثل جراثيم الأوباء القاتلة.

روح الزمان تحرك بالأخص مجتمعات البشر الكبرى

أن نابليون بونابرت خلع بطلب مجلس الاعيان - على أثر دخول اسكندر الاول امبراطور الروس مدينة باريس - وأعيد تاج الملكية الفرنسوية الى أسرة بوربون فلبسه كونت بروفانس شقيق لويس السادس عشر وأطلق عليه اسم « لويس الثامن عشر »

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

وتنفجر في العواصم، وأضعف من ذلك تأثيرها في القرى والارياف.

ووظيفة رجال السياسة بعد هذا البيان أن يبحثوا أولا في مقتضيات الزمان وطبعته الأساسيه، وجدير بهم أن ينتهزوا فرصة حلول الوقت لتنفيذها. وكل عمل يكون قبل حلول أوانه أو بعد فوات زمانه فعاقبته الخيبة والخسران.

فرض على رجال الدولة أن لا ينسوا أبداً قدر روح الزمان، فهي قوة خليقة بالملاحظة والاعتبار. ولما كان السياسة قد تولوا عملا دقيقاً هو قيادة الأمم وادارتها فمن وظيفتهم أن يقوموا بواجب الدليل الماهر الأمين الذي لا يغفل طرفة عين عن العلم بجهة هبوب الرياح، ومبلغ اتساع أمواج البحر الذي تمخر سفينة الدولة فيه، والا فقد تتسرب المياه الى داخل السفينة من ثقب صغير، ثم تذهب بها وبمن عليها.

وخلاصة القول ان الواجب الحقوقي يقضي على رجال السياسة بأن يجتهدوا في تطبيق مبادي، الزمان الجديدة في حينها.

— القسطنطينية: تشرين الثاني، ١٣٢٤ —

أحمد شعيب

فهرس :

صفحة

٣ علم الجماعة في الشرق ـ بقلم رفيق بك العظم

١١ الاستاذ أحمد شعيب
والحالة العلمية والاجتماعية في القسطنطينية

٢١ الفرد والجماعة

٢٢ نظام الامة وأوضاعها تبع لاستعدادها وحاجتها

٢٤ لا طفرة في الارتقاء

٢٦ نشأة الدول ونقض « العهدة الاجتماعية »

٢٩ الفطرة البشرية

٣٠ تأثير الاقليم في تكوين كيان الدول الطبيعي

٣١ سبب وجود الجماعات وتأسس الدول

٣٣ سلطة الفرد على الجماعات

٣٤ تأثير الحرب في تعيين شكل الحكومات

٣٦ « الصناعة « « « «

٣٧ « سلطة الكهنة « « « «

٣٨ (هامش) مدينة رومة والذي أسسها

٣٩ الحكومة السياسية وتأثير التضامن في تكوين الامة

٤١ حياة الجماعة وارجاع التضامن الى مبدأين

صفحة

٤٣ توزيع الوظائف
٤٤ الاجهزة الحيوية في الدولة
٤٧ سنن الاجتماع في المحافظة والتجديد
٤٩ جمود الامم القديمة في تقاليدها
٥١ اهتداء الانكليز الى موكز التوازن
٥٢ (هامش) الجمهورية الانكليزية وثورة الانكليز على أسرة ستوارت
٥٣ الارتقاء خير من الثورة
٥٥ (هامش) ثورة الهولنديين على الاسبانيين
٥٧ » ثورة الالمان على نابليون
٥٨ » ثورة الايطاليين على النمسا
٥٩ طبيعة الثورة وواجب الحكومة من قبل ومن بعد
٦١ الشيوخ والشبان
٦١ صعود الآراء الجديدة وسقوطها
٦٣ (هامش) دور النهضة
٦٣ » الاعادة
٦٤ روح الزمان

مكتبة المنار

لاصحابها

رضا وخطيب وقتلان

القاهرة : شارع عبد العزيز

هي التي يجدر بك الاعتماد عليها

في طلب

كتب الدين والعلم والأدب والاجتماع

عامة

ومطبوعات ادارة المنار والمكتبة السلفية

خاصة

وفيها أدوات كتابة وكتب مدرسية

أطلب الفهرس العام للمكتبة - عن هذه السنة

يقدم لك مجاناً

مكتبة المنار

لاصحابها

رضا و خطيب و قتلان

القاهرة : شارع عبد العزيز

هي التي يجدر بك الاعتماد عليها

في طلب

كتب الدين والعلم والأدب والاجتماع

عامة

ومطبوعات ادارة المنار والمكتبة السلفية

خاصة

وفيها أدوات كتابة وكتب مدرسية

أطلب الفهرس العام للمكتبة - عن هذه السنة

يقدم لك مجاناً

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 073504480